الانسان العربي، في الادب العبري

بين التحولات الهامة التي طرأت على الفكر العربي بفعل نكسة حزيران اياها، كان ذلك الاهتمام الواضح باستكشاف ما كان غامضا ومهملا، من جذور الفكر الصهيوني واذرعته، منذ بدأ التماس الاول بين الحركة الصهيونية وحركة التحرر القومي العربية.

وانه لامر طبيعي ان يسهم المثقفون الفلسطينيون بقسط كبير في عملية التنقيب عن اغوار المراع الصهيوني ـ العربي ـ ومن ابرز ما وصلنا عبر خطوط النار، كتاب الاديب الشهيد غسان كنفاني عن الادب الصهيوني، وكتاب الشاعر معين بسيسو عن العربي في الرواية الصهيونية.

غير ان هذين العملين ـ الى جانب بعض الدراسات التي اتيح لنا الاطلاع عليها في ما طالته ايدينا من منشورات الوطن العربي ـ يعتورهما نقص واضح نرده الى العوامل التالية:

١- عدم معرفة الاغلبية العظمى من الباحثين العرب للغة العبرية.

٢- استخلاص النتائج، من خلال بعض الاعمال الادبية العبرية المترجمة الى الانجليزية او اية لغة اخرى، ونحن نعلم ان الترجمة اقتصرت على بعض الاعمال الحديثة التي لا تعطي

صورة كاملة عن الادب الاسرائيلي او الادب الصهيوني.

٣- الاستشهاد ببعض الاعمال التي كتبها صهيونيون غير اسرائيليين مثل ليون يوريس في كتابه اكسودس، وهذه الاعمال لا يمكن ان تعطي فكرة شاملة عن الادب الصهيوني، لا سيما ما كتب في فلسطين وما يكتب الان في اسرائيل.

٤- اتسم ما قرأناه في هذا المجال بالسرعة في التناول والادانة، الامر الذي جعل تلك الابحاث اشبه بالريبورتاجات الصحفية.

ومهما يكن من امر، فان هذه الملاحظات لا يمكن ان تستهدف التقليل من شأن ما انجز، وهي لا تعدو كونها دعوة لبحوث اعمق واشمل، تستوفي المهمة وتفي بالغرض.

لقد اسهب الكتاب العرب في التنبيه الى الاهتمام الذي تكرسه اسرائيل والصهيونية لفهم نفسية الانسان العربي وعالمه بكافة جوانبه وابعاده. ومما يثير الدهشة ان الاعلام الاسرائيلي يبدي اهتماما نشطا ومثابرا بهذه "اليقظة" العربية، وهذه الدعوة الى الانفتاح المقابل ودراسة الانسان الاسرائيلي والصهيوني. وقد قرأنا في صحيفة "معريب" في الشهر الماضي، ترجمة دقيقة لما كان الكاتب العربي رجاء النقاش قد كتبه في مجلة "الآداب" البيروتية حول اهتمام الجنرال متتياهو بيلد بالادب العربي وحصوله على شهادة الدكتوراه حول اعمال كاتبنا الكبير نجيب محفوظ.

انهم يتعقبون الفكر العربي خطوة بخطوة، واصبح لزاما على الباحثة العرب ان يتخلصوا نهائيا من النظرة القديمة، نظرة تجاهل الكيان الصهيوني والاستخفاف بشأنه والاستنكاف عن دراسة احواله واعتمالاته ومراميه.

لعلنا نطرح بدهية حين نشير الى الدور الهام الذي يستطيع

المثقف العربي المقيم في وطنه ان يؤديه على هذا الصعيد. ولا ريب في ان معرفة المثقف العربي في اسرائيل للغة القوم ومناخاتهم المعيشية والنفسية، تشكل اداة هامة للاستطلاع والغور حتى ادق التفاصيل.

عوضا عن ذلك، فان الاتصال المباشر المتاح بين المثقفين العرب واليهود في بلادنا من شأنه ان يغني اية دراسة حول الموضوع العربي في الادب والفكر الصهيونيين والعبريين.

وقد ادركت "الجديد" هذه الحقائق، فسعت من اعوام وما زالت ساعية على نهج التعارف من أجل الحقيقة الكاملة، فنحن لم نعرض للوجه الايجابي في الادب الاسرائيلي والعبري فحسب، بل اكدنا دائما على الوجه السلبي ايضا، وهو الوجه الاوسع والاشمل حتى الان لاسفنا العميق.

من منطلقنا هذا أجرينا في الأونة الاخيرة حوارا مع الكاتب الاسرائيلي الشاب ايهود بن عيزر الذي يكرس منذ سنوات اهتماما بالغا لبحث الموضوع، ويعد كتابا كبيرا -كما قال لنا- حول شخصية العربي والموضوع العربي في الادب الصهيوني والاسرائيلي..

وفي عدد قادم من "الجديد" نقدم للقراء حديثا طويلا مع الكاتب بن عيزر يلخص فيه دراسات سابقة كان نشرها في بعض الصحف العبرية ومحاضرة القاها -باسهام "الجديد"- في حيفا في الشهر الماضي، حول المسألة نفسها.

في حوارنا مع بين عيزر، ومع زملاء له من قبل، ابدينا رأينا القائل بان الادب العبري -الصهيوني منه وغير الصهيوني- عجز باغلبيته الساحقة عن تقديم نموذج ناجح واحد للانسان العربي، لا سيما الفلسطيني.

على وجه العموم، نفاجأ بالانسان العربي في اعمال ابناء عمومتنا، باعتباره شخصا احادي الجانب. وفي حالات عديدة نراه شيئا من اشياء الطبيعة، البعض يحبونه كما يحبون زهرة برية، والبعض يمقتونه كما يمقتون حشرة سامة..

وهكذا، فالعربي يمكن ان يكون اي شيء سوى نفسه، سوى الانسان المركب بكل ما فيه من خير وشر، سوى الانسان العادي. وقد لاحظ الاديب والشاعر العبري التقدمي مردخاي ابي شاؤول، هذه الظاهرة وعزاها الى جو الغربة الذي يسود العلاقات بين الشعبين. ورأى ابي شاؤول انه حتى الكاتب العبري الذي يرغب في التحدث عن الانسان العربي بروح ودية طيبة، فانه يتحدث عن شيء غريب عليه .. ويدعو ابي شاؤول الى تجاوز هذا الشعور بالغربة.

يطيب لنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ونتساءل: ما هي مصادر الغربة؟ وكيف يمكن التغلب عليها؟

في اعتقادنا، ان الشعور بالغربة لدى الكاتب العبري ناجم عن الثقافة الصهيونية وعن الفكرة الصهيونية التي تقف جدارا مظلما بينه وبين جاره العربي. في لا وعيه -ان لم يكن في وعيه التام- يحسّ الكاتب العبري المعبأ بالثقافة الصهيونية ان وجوده على هذه الارض يتناقض اساسا مع وجود العربي ويدرك أن ذلك يتم على حساب العربي، من هنا يبدأ في ذاته الصراع الحاد مع ذاته من جهة ومع ذلك العربي من جهة اخرى، ويتخذ هذا الصراع احد اتجاهين:

- إما أن يتعاطف مع جاره العربي تعاطفا رومانسيا يتجاوز الواقع او يتجاهله ..
- وإما أن يقنع نفسه بحيازة الحق الالهي الذي تقوم عليه الصهيونية، فيعلن عداءه السافر لهذا العربي الذي يحاول ان

يقض مضجعه.

ومهما يكن من أمر، فلا ينبغي علينا تجاهل الفئة الثالثة -وان تكن ضئيلة- من الكتاب اليهود الذين يدركون الصراع الجاري على ارض هذه البلاد ادراكا ثوريا، ويعكسونه في اعمالهم بروح ثورية تتعامل مع العربي كانسان وصاحب حق. ولا شك في ان هذا الاتجاه يمثله في الاساس الكتاب والشعراء الشيوعيون الذين يمكن اعتبارهم الضمير الحقيقي للشعب اليهودي رغم ضآلة نفوذهم الادبي في الوقت الراهن.

لقد لجأت الصهيونية منذ خطواتها الاولى الى تزييف تاريخ البلاد وتاريخ انسانها. وهناك عشرات النماذج "الادبية" على ذلك، منها على سبيل المثال قصة لواحد يدعى بركوفيتش كتبها قبل قيام اسرائيل، بعد ان زار الخليل. وهو يصف العرب بانهم شعب تعيس ومنافق وجبان يرهب الاجانب ويفعل كل شيء من اجل البقشيش.

مثال آخر تقدمه لنا قصة لكاتبة تدعى حمده بن يهودا تقول فيها ان العربي حسن الاعمى كان يعيش على بيع اليهود ثمار التين التي يقطفها مع ابنته. وفي احد الايام تسقط ابنة حسن الاعمى (من الافضل ان يكون العربي في القصة الصهيونية ذا عاهة!) قلت تسقط عن شجرة التين فتموت. وماذا يفعل هذا الاب العربي المجرد من المشاعر الانسانية؟ (!) يذهب الى اليهود يبيعهم التين بسعر اغلى. لماذا؟ لانه أراد أن يضيف الى سعر التين سعر ابنته التي ماتت!

حتى الكاتب الصهيوني الاكبر شموئيل يوسف عجنون الحائز على جائزة نوبل للادب، لم يشذ عن هذه النظرة بكثير حين دعا في بعض قصصه الى اغلاق ابواب العمل في وجوه العمال العرب حتى لا يرفعوا رؤوسهم -على حد تعبيره هو.

لا شك في ان هناك تفاوتا في النظرة الى العربي بين الادب العبري والادب الصهيوني، في مرحلة الحكم العثماني وبينها في عهد الانتداب البريطاني ثم بعد قيام اسرائيل، غير ان هذا التفاوت يجري في اطار الموقف الشامل الواحد.

قبل ان يطفو الصراع على سطح العلاقات بين الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية كان هناك مجال شاسع لتلوين الشخص العربي بألوان الف ليلة وليلة المتكونة في الثقافات الاوروبية على اختلاف اقطارها. وحين احتد الصراع بدأ الصدام المرير بين الحلم والواقع، وبعد نكبة الشعب العربي الفلسطيني أصبح العربي "كابوسا وجوديا" بالنسبة للكاتب العبري -على حد تعبير ايهود بن عيزر، واصبحت القضية العربية قضية يهودية.

لعل اقدم صيغة لطابع العلاقات العربية -اليهودية في بلادنا، من وجهة النظر الصهيونية هي تلك التي وضعها هرتسل في كتابه "الت نوي لاند" (البلاد القديمة الجديدة) الذي وضعه باللغة الالمانية في عام ١٩٠٢. ومن تلك الصيغة بالذات يتضح قصر نظر الصهيونية وعجزها عن فهم حركة التاريخ وتطور الشعوب.

في ذلك الكتاب سجل هرتسل تصوراته لما ستكون عليه البلاد بعد عشرين سنة. وهو يطرح العلاقات بين الشعبين من خلال احد اشخاص كتابه ويدعى رشيد بك. رشيد بك هذا سعيد جدا بالمشروع الصهيوني ويرى ان هذا المشروع سيجلب له الحضارة والرفاهية لذلك فهو يتنازل عن اراضيه لمصلحة المشروع ويندمج في الخطة الصهيونية.

من هنا نرى ان هرتسل واتباعه اعتقدوا منذ البداية ان رأس المال الصهيوني قادر على شراء العرب وصرف انظارهم عن اية تشوفات

قومية استقلالية. ومن يطالع اليوم تصريحات المسؤولين الاسرائيليين حول العلاقات بين عرب اسرائيل والسلطة وعرب المناطق المحتلة حديثا وقوات الاحتلال، يلاحظ التطابق التام بين منطلقات هرتسل الاقتصادية ومنطلقات ورثة أفكاره في اسرائيل.

غير ان هذه النظرة الهرتسلية لم تكن الوحيدة ولا الاولى في الميدان. فقبل صدور كتاب هرتسل، وفي عام ١٨٩١ بالتحديد زار فلسطين الكاتب اليهودي المعروف أحاد هعام، وكتب فيما بعد مقالة حذر فيها من الاستخفاف بالعرب قائلا ان العرب ككل ابناء العرق السامي يتمتعون بعقل حاد وذكي وان مدنهم مليئة بالتجار الاذكياء الذين يعرفون كيف يستدرجون زبائنهم - بمن فيهم اليهود- للكسب منهم. ولا يتضح من مقالة احاد هعام اذا كان يدعو الى التخلي عن الحلم الصهيوني ام انه يدعو الى الحيطة والحذر في تحقيقه.

بعد كتاب هرتسل المذكور برز اتجاهان ادبيان داخل الحركة الصهيونية في فلسطين.

احدهما يمثله رز بنيامين الذي دعا إلى اندماج اليهود بالعرب لخلق شعب جديد -وهذا الاتجاه يقابله في أدب ما بعد قيام اسرائيل الاتجاه الكنعاني عند بنيامين تموز الذي تنبأ هو الاخر بظهور شعب جديد، قبل انحرافه القومي الشوفيني الاخير..

والاتجاه الثاني آنذاك كان يمثله برينر المتذبذب بين تفهم موقف العربي والعطف عليه وبين مناصبته العداء. وقد رد برينر على ر. بنيامين بمقالة في عام ١٩١٢ قال فيها أن دعوة الاخوة بين الشعبين هي دعوة مثالية وغير قابلة للتحقيق، فبين الشعبين تقوم كراهية عميقة وان هذه الكراهية امر ضروري.

الانتصارات العسكرية المتتالية التي حققتها الصهيونية، تركت

آثارها العميقة على الادب العبري في كافة مراحله. فيوم كانت شخصية يهودي المهجر ونفسيته هما السائدتان في الوسط اليهودي كان العربي يمثل نموذج القوة والسيطرة والجرأة العنيفة. ولا شك في ان هذه الصورة اخذت تتحطم بعد كل معركة عسكرية، واصبح العربي يتحول من "الشيء" الذي يشكل خطرا جسمانيا على الكاتب اليهودي الى "الشيء" الذي يشكل خطرا نفسيا وروحيا، ومن هنا بدأت ازمة "الكابوس الوجودي" الذي اشرنا اليه سابقا.

بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧، غمرت السوق الاسرائيلية موجة من الادب العسكري الشوفيني الرخيص، غير أنه من خلال هذه الغمرة برزت بعض الاعمال الهامة التي تعكس احتدام الازمة النفسية الناجمة عن اصرار هذا العربي على عدم الزوال واصراره على حقه المشروع في وطنه. وفي اعمال اورباز وا. ب. يهوشوع وبنيامين تموز وايهود بن عيزر واخرين، نجد مصداقا لهذا القول.

ان هذا الموضوع -موضوع الانسان العربي في الادب العبري- من الاتساع بحيث لا يمكن اجماله في هذه السطور، ويبقى القسط الاوفر من المهمة ملقى على عاتق الباحثين العرب.

ونحن من جانبنا سنقدم كل ما نستطيعه من اجل ايفاء هذه المسألة حقها علينا.